

أثر لا يرى

تأليف: غنوة المحميد



الرّواية: أَثَرُ لَا يُرَى

تأليف: غَنُوةُ الْمُحَيِّمِيد

تصميم: فاطمة فتوح

سنة النشر: 2026م

جميع الحقوق محفوظة، ولا يُسمح بأيّ نسخ
أو اقتباس من الكتاب دون إذن مسبق
من المؤلّفة.



إلى الذين أدركوا، ولو متأخرين،
أنَّ الأشياء لا تنتهي عند حدود ما تراه العين،
وأنَّ لبعض التفاصيل أثرًا لا يرى،
لكنه يبقى فينا طويلًا.

إلى الذين مرّوا بالحياة بقلوب تُصغي
لما تعجز الكلمات عن قوله،
ويبحثون في الصمت عن معناه،
وفي العابر عن أثره،
وفي كلّ نهايةٍ عن شيءٍ لم ينته بعد.

إلى كلّ من توقّف يومًا أمام شيءٍ عادي،
ثم شعر أنَّ وراءه حكايةً لم تُرو،
ومعنى لم يُكتشف،
وأثرًا تركته الحياة في مكانٍ لا تراه العين.

وإلى من يؤمنون
أنَّ أعمق ما في الحياة
ليس دائمًا ما يظهر لنا،
بل أثر ما لا يرى.



المقدمة

نمرُّ بالأشياء كثيرًا، حتَّى نَظُنَّ أنَّنا عرفناها.

نعبُرُ الطرق ذاتها، نرى الوجوه ذاتها، نفتحُ الأبواب ذاتها، ونلتقطُ من الأيام تفاصيلها الصغيرة كما لو أنَّها لا تحمل أكثر ممَّا تُظهره. ثم تمضي الحياة، ونمضي معها، قبل أن نتوقَّف ذات يوم أمام شيءٍ عابر، فنكتشف أنَّه لم يكن عابرًا كما ظننا.

فثمَّة أشياء لا تقول شيئًا، ومع ذلك تُخبرنا بالكثير.
وثمَّة صمتٌ يبدو فارغًا، بينما يختبئ في داخله كلامٌ كامل.
وثمَّة تفاصيل صغيرة تمرُّ أمام أعيننا، ثم تعود إلينا بعد زمنٍ طويل، لا لأنَّها كانت عظيمة، بل لأنَّها تركت فينا شيئًا لم نعرف اسمه آنذاك.

لعلنا لا نتذكَّر الأشياء كما حدثت، بل كما تركت أثرها فينا.

وهذا الكتاب لا يحاول أن يعلمك كيف تنظر إلى الحياة، بقدر ما يدعوك إلى أن تنظر إليها مرَّةً أخرى؛ ببطءٍ يكفي لأن ترى ما يفوت العابرين، وبقلبٍ لا يكتفي بسطح الحكاية.

ستجد هنا مرآةً، وطريقًا، ونافذةً، وظلًّا، ومفتاحًا، وحقيبةً، ورسالةً، وضوءًا.

أشياء تبدو بسيطة، وربما مألوفة إلى حدٍّ أننا لم نعد نلتفت إليها. لكنَّ لكلِّ واحدٍ منها وجهًا آخر؛
وجهًا لا يظهر إلَّا حين نمُنح التفاصيل وقتها، ونسمح للمعنى أن يتشكَّل بعيدًا عن ضجيج
الإجابات الجاهزة.

فقد لا يكون الباب مجرد باب، ولا الطريق مجرد طريق، ولا الرحيل مجرد ابتعاد.

وربما كان أكثر ما يغيِّرنا هو ذلك الذي لم ننتبه إليه لحظة حدوثه.

لذلك، لا تقرأ هذه الصفحات بحثًا عن إجابةٍ لكلِّ سؤال؛ بعض الأسئلة خُلقت لفتح فينا نافذة، لا
لتغلاقها بإجابة. ولا تبحث عن نفسك في الكلمات وحدها؛ فقد تجد شيئًا منك بين سطري وآخر، في
تفصيلٍ مررت به من قبل ولم تمنحه اسمه، أو في حكايةٍ ظننت أنها تشبه شخصًا آخر، ثم
اكتشفت أنها كانت تلمس مكانًا فيك.

لعلَّ الكتابة لا تغيِّر الأشياء من حولنا، لكنها تغيِّر الطريقة التي نراها بها.

وحين تتغيَّر النظرة، يتغيَّر الكثير.

لهذا، ما بين هذه الصفحات ليس ما تراه العين وحدها، بل ما يبقى بعد أن تنصرف العين؛ ذلك
الأثر الخفي الذي تتركه الأشياء في أرواحنا، ثم تمضي...

أثر لا يُرى.

الفصل الأول
المرايا



الوجه الذي نعرفه

نقف أمام المرأة كثيرًا، لا لنعرف وجوهنا، بل لنتأكد
أنّ الصورة التي نحملها عن أنفسنا ما زالت في مكانها.
نمرّر أعيننا على الملامح، نتفحص ما تغيّر، ونبحث
أحيانًا عن شخصٍ كنّاه ولم نعد نعرفه. لكنّ المرأة،
مهما صدقت، لا تستطيع أن تخبرنا بكلّ شيء؛ فهي
ترى الوجه الذي نضعه أمامها، ولا ترى ما حدث له
قبل أن نقف.

قد يتسم شخصٌ في المرأة، بينما في داخله سؤالٌ لم
يجد طريقه إلى الكلام. وقد تبدو عيناها هادئتين،
لأنّهما تعلّمتا منذ زمن كيف تخفيان اضطرابهما.
لهذا، ليست كلّ صورةٍ حقيقةً كاملة.

نحن لا نرى أنفسنا كما نحن دائماً، بل كما
اعتدنا أن نراها، وكما علّمنا الآخرون أن
ننظر إليها.

وربّما كان أصعب ما يمكن للإنسان أن
يفعله، أن يقف أمام نفسه بلا عينٍ أخرى
تحكمه؛ أن ينظر إلى ملامحه دون أن يسأل: هل
أعجبْتُهم؟ هل تغيّرت؟ هل أصبحتُ كما
ينبغي؟

فبعض المرايا لا تعكس وجوهنا، بل تعكس
الطريقة التي اعتدنا بها النظر إليها.

ندبة لا تظهر

كانت تضع يدها على الموضع نفسه كلما مرّت أمام المرآة.
لا شيء هناك.

سطح صافٍ، جلد لم يحمل يوماً علامةً تستحق أن تُرى، ومع
ذلك كانت أصابعها تعرف المكان بدقة.

سألها أحدهم مرّة عن سبب ذلك، فاكثفت بابتسامة قصيرة،
وسحبت يدها.

بعض الأشياء لا تحتاج إلى أثرٍ على الجسد كي تثبت أنّها
حدثت.

هناك ندوبٌ لا يراها أحد؛ تظهر في طريقة صمتنا، في خوفٍ
صغيرٍ لا نفهم مصدره، في تردّدنا أمام خطوةٍ كان من المفترض
أن تكون سهلة، وفي تلك المسافة التي نتركها دائماً بيننا
وبين الأشياء التي نحبّها.

والغريب أنّ الإنسان قد ينسى الحادثة،
لكنه لا ينسى ما غيّرت فيه.
قد لا تتذكر متى أصبحت أكثر حذرًا، ولا
متى صرت تزن كلماتك قبل أن تقولها، ولا
متى تعلّمت ألا تمدّ يدك كاملة نحو
الأشياء.

لكنّك تفعل.
وكأنّ شيئًا في داخلك يتذكّر عنك.
لذلك، ليست كلّ الندوب علامات تُرى؛
بعضها يتحوّل إلى طريقة جديدة في
العيش.

حين لا تكفي الصورة

احتفظت بصورة قديمة في آخر درج لا تفتحه كثيرًا.

كان الجميع يبتسمون فيها.

الضوء جميل، والوجوه متقاربة، ولا شيء في الصورة يوحي

بأن الزمن كان يستعدّ لاقتطاع بعض أصحابها من

المشهد.

كلّما نظرت إليها، شعرت أنّ الصورة تكذب.

ثم تراجع عن الفكرة.

هي لم تكذب.

لقد قالت الحقيقة الوحيدة التي تستطيع صورة أن تقولها:

هكذا كنّا في تلك اللحظة.

أما ما حدث بعدها، فلم يكن من شأنها.

وهنا تكمن غرابة الصور؛ أنها تحفظ اللحظة، لا
ما خبّأته اللحظة من مستقبل.

قد نبتسم في اليوم الذي نكون فيه على وشك أن
نتغيّر، ونصافح شخصًا للمرة الأخيرة دون أن
نعرف أنها الأخيرة، ونلتقط صورةً عاديةً لمرحلةٍ
لن تعود عاديةً أبدًا.

لهذا لا تُقاس قيمة اللحظات بما نشعر به أثناءها
فقط.

بعض اللحظات لا نعرف عظمتها إلا بعد أن
تصبح ذكرى.

وحين نعود إليها، لا نبحث عن الأشخاص
وحدهم، بل عن أنفسنا القديمة بينهم؛ تلك التي
كانت تقف هناك مطمئنة، لأنها لم تكن تعرف
بعد ما سيعرفه الزمن عنها.

المرأة التي لا تُرى

قالت لها أمّها ذات مساء:

«أنتِ تغيّرتِ.»

لم تجب.

ذهبت إلى غرفتها، وقفت أمام المرأة، وأخذت تتأمل وجهها
طويلاً.

لم تجد شيئاً.

الملامح نفسها تقريباً، والعينان في مكانهما، والشعر لم يتغيّر
كثيراً.

لكنّها، للمرّة الأولى، فهمت أنّ التغيّر لا يشترط أن يمرّ على الوجه.
هناك أشياء تغيّرتنا من الداخل حتى يصبح انعكاسها الوحيد في
الطريقة التي نعيش بها.

نصبح أقلّ اندفاعاً، لا لأنّنا فقدنا الشغف، بل لأنّنا عرفنا ثمن
بعض الخطوات.

نصمت أكثر، لا لأنّ الكلام انتهى، بل لأنّنا
تعلمنا أنّ بعض الكلمات حين تخرج لا تعود
ملكاً لنا.

نترك بعض الأبواب مغلقة، لا خوفاً ممّا خلفها،
بل لأنّنا لم نعد الشخص الذي كان يطرقها
بإصرار.

ربّما لهذا لا تستطيع المرأة أن تخبرنا كم تغيّرنا.
فالوجه يتبدّل ببطء، أمّا الروح فتفعل ذلك في
لحظة.

وقد لا تلاحظ الفرق وأنت تعيشه.
لكنّك ستدركه يوم تعود إلى مكانٍ قديم، وتجد أنّ
كلّ شيءٍ ما زال كما كان...
إلا أنت.

الفصل الثاني الطريق



الطريق الذي لم نسلكه

كان الطريقان متشابهين إلى حدٍّ مربك.
لافتان، ومسافتان، وسماءٌ واحدة فوقهما.
وقف طويلاً عند المفترق، يقرأ أسماء الأماكن
كأنَّ أحدها سيخبره بما ينتظره في نهايته. ثم اختار
الطريق الأيسر، ومضى.
بعد سنوات، عاد إلى المكان نفسه.
كان الطريق الآخر لا يزال هناك.
لم يعد يسأل نفسه: ماذا كان سيحدث لو اختاره؟
فبعض الأسئلة لا تملك إجابة، مهما أعدنا
طرحها.

لقد فهم أخيرًا أنّ الحياة لا تُبنى من الطرق التي
اخترناها فقط، بل أيضًا من تلك التي تركناها
خلفنا.

فالطريق الذي لم نسلكه لا يختفي؛ يبقى احتمالًا
صامتًا في مكانٍ ما من ذاكرتنا، يذكّرنا بأنّ لكلّ
اختيارٍ وجهًا لا نراه.

ومع ذلك، ليس علينا أن نندم على كلّ ما لم نفعله.
يكفي أن نعرف أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش
جميع الاحتمالات.

عليه أن يختار طريقًا واحدًا، ثم يمنحه من
خطواته ما يكفي ليصبح طريقه.

خطوة واحدة

لم يكن الباب بعيدًا.

كانت المسافة بينه وبينه قصيرة، لكنّ قدميه ظلّتا في مكانهما.

ظلّ ينظر إليه أيامًا، يخطّط للخطوة الأولى، ويؤجّلها إلى صباح آخر.

وفي أحد الصباحات، اكتشف أنّ الباب لم يتغيّر.
هو الذي أمضى وقتًا طويلًا يمنح الخوف أسماء كثيرة.
قال: الوقت غير مناسب.

وقال: ربما أفضل.

وقال: سأبدأ حين أكون مستعدًا.

لكنّ الاستعداد الكامل لم يأتِ.

ففتح الباب.

لم يحدث شيءٌ استثنائي.

لم تهبط السماء بنورٍ جديد، ولم تصفق له الحياة.

فقط...

خطأ.

وأحيانًا تكون هذه هي اللحظة التي تغيّر كل شيء؛ لا لأنّ العالم تغيّر، بل لأنّ الإنسان قرّر

أخيرًا أن يتحرّك داخله.

قد لا تحتاج بعض الطرق إلى شجاعةٍ عظيمة.

قد تحتاج فقط إلى خطوةٍ صادقة واحدة.

المنعطف

كان الطريق مستقيماً في بدايته.

ثم جاء المنعطف.

توقف لحظة، ونظر إلى الخلف، كأنه يريد التأكد من أن

الطريق القديم ما زال موجوداً.

كان موجوداً.

وهذا ما جعله يتردد.

نحن لا نخاف دائماً من الطريق الجديد؛ أحياناً نخاف من

فكرة ألا نستطيع العودة إلى القديم.

ولهذا نبقي طويلاً عند المنعطفات، نحدّق في ما تركناه،

وننسى أن الطريق أمامنا لا ينتظر إلى الأبد.

مضى.

ولم يعرف ماذا سيجد بعد المنعطف.
لكنّه تعلّم شيئاً لم تكن الطرق القديمة
قادرة على تعليمه:

أنّ بعض التحوّلات لا تأتي لأنّنا نعرف
أين سنصل، بل لأنّ البقاء في المكان نفسه
لم يعد يشبهنا.

ليس كلّ منعطف علامةً على أنّنا ضلّلنا
الطريق.

أحياناً يكون المنعطف هو الطريق
نفسه، حين تقرّر الحياة أن تأخذنا إلى
جهةٍ لم نكن نعرف أنّها لنا.

آخر الطريق

وصل متأخرًا.

كان المكان هادئًا، والطريق خلفه طويلاً، وحذاؤه يحمل غبار المسافة
التي قطعها.

نظر إلى النهاية، ثم ابتسم.

لم تكن كما تخيل.

لا احتفال، ولا لحظة عظيمة، ولا ذلك الشعور الذي وعدته به مخيلته
طوال الطريق.

كان هناك فقط مكانٌ جديد، وسماءٌ مختلفة قليلاً، وصمتٌ واسع.

حينها فهم أنه كان يسأل الطريق طوال الوقت: إلى أين سيأخذني؟

بينما كان السؤال الأهم:

من سأصبح وأنا أمشي؟

فالتفك لا تمنحنا الأماكن وحدها.

إنها تغيّر خطوتنا، ونظرتنا، وطريقة حملنا
لأثقالنا، وحتى الأشياء التي نعدّها وصولاً.
وقد نصل أحياناً إلى المكان الذي أردناه، ثم
نكتشف أنّ أثمن ما حصلنا عليه لم
يكن هناك.

كان في الطريق.

في كلّ مرةٍ واصلنا فيها رغم التعب.
في كلّ مرةٍ لم نعرف فيها النهاية، لكنّنا
خطونا.

وفي كلّ خطوةٍ ظنّنا أنّها لا تعني شيئاً...
ثم اكتشفنا لاحقاً أنّها كانت تصنعنا.

الفصل الثالث النوافذ



الجهة الأخرى

كانت تقف كل مساء أمام النافذة نفسها.
في الجهة الأخرى، كان العالم يمضي دون أن
يعرف أنّ أحدا يراقبه؛ طفلٌ يركض خلف كرة،
رجلٌ يحمل كيسًا صغيرًا، وامرأةٌ ترفع رأسها
للسماء كأنها تنتظر شيئًا.

لم تكن النافذة تمنعها من رؤية الحياة.
كانت تمنعها فقط من لمسها.
ومع ذلك، بقيت واقفة.

حتى جاء يومٌ فتحت فيه النافذة للمرة الأولى.

دخل الهواء، وتحرك الستار، وتبدّل شكل
الغرفة قليلاً.

لم يتغيّر العالم.

لكنّ المسافة بينهما تغيّرت.

أدركت حينها أنّ بعض الحواجز لا

تكون أقوى منّا، نحن فقط نمنحها وقتاً

طويلاً كي تبدو كذلك.

وقد تكون النافذة التي نظنّها حدّاً،

مجرّد دعوةٍ هادئةٍ إلى أن نخطو خطوةً

أبعد.

نافذة مضيئة

في آخر الشارع كانت هناك نافذة مضيئة دائماً.

لم تعرف مَنْ يسكن خلفها، ولا لماذا بقي

الضوء مشتعلًا حتى ساعاتٍ متأخرة.

كانت تراها كلما مرّت من هناك، وتفكر في

الحياة التي تحدث خلف الزجاج.

ذات ليلة، انطفأ الضوء.

توقّفت.

للمرة الأولى شعرت أنّ الشارع أصبح أوسع،

وأنّ شيئًا صغيرًا كان يمنحه معنى قد اختفى.

ثم ابتسمت لنفسها.

كيف يمكن لضوءٍ لا نعرف مصدره أن يصبح

جزءًا من يومنا؟

ربما لأنّ الإنسان لا يتعلّق دائمًا بما يملكه.

أحيانًا يكفيه أن يعرف أنّ هناك ضوءًا في مكانٍ

ما.

وهكذا هي بعض الأشياء في حياتنا؛ لا نلمسها، ولا

نملكها، وربما لا نعرف عنها إلا القليل، لكنها

تمنحنا سببًا صغيرًا كي نواصل السير.

وحين تختفي، نكتشف أنّ قيمتها لم تكن في

حجمها...

بل في الأثر الذي تركته وهي موجودة.

ما وراء الزجاج

وضعت يدها على الزجاج.
كان باردًا.

في الخارج كانت السماء تمطر، والطرق تلمع تحت
الضوء، وكل شيء يبدو قريبًا إلى حد أنها شعرت أن
بإمكانها الوصول إليه.

لكنّ الزجاج بقي بينهما.

فكّرت طويلاً في الأشياء التي تشبهه.

كم من فرصة كانت قريبة، لكنّ شيئاً غير مرئي
جعل الوصول إليها مؤجلاً؟

وكم من مرة رأينا ما نريد بوضوح، ثم أقنعنا أنفسنا
بأنّ المسافة أكبر مما هي عليه؟

ليس كلّ ما يفصلنا عن أحلامنا جدارًا.
أحيانًا يكون خوفًا صغيرًا.
وأحيانًا فكرةً قديمةً صدّقناها عن أنفسنا.
وأحيانًا كلمةً قالها شخصٌ ذات يوم، فبقي
صداها أطول من اللازم.
مسحت قطرات المطر عن الزجاج.
لم تفتح النافذة.
لكنّها هذه المرة لم تبتعد عنها.
وكأنّها فهمت أنّ أول الطريق إلى الأشياء ليس
الوصول إليها...
بل أن نتوقّف عن اعتبارها بعيدة.

نافذة بلا ستائر

لم تكن تحبّ النوافذ المكشوفة.
كانت تفضّل أن تختبئ خلف الستائر، وأن ترى العالم من
دون أن يراها.
كان ذلك أكثر أمانًا.
حتى جاء صباحٌ فتحت فيه الستائر كلها.
دخل الضوء دفعةً واحدة، فاضطرت إلى إغماض عينيها.
انتظرت قليلًا.
ثم فتحتهما.
لم يكن الضوء مؤذيًا كما توقعت.
وعرفت أنّنا أحيانًا لا نخاف من النور نفسه، بل من الأشياء
التي سيكشفها.
فالوضوح مسؤولية.

حين ترى الطريق، يصبح عليك أن تختار.
وحين ترى الحقيقة، يصعب عليك أن تتظاهر
بأنك لم ترها.

وحين ترى نفسك بصدق، لن تستطيع طويلاً
أن تعيش بالصورة التي رسمها الآخرون لك.
لهذا تبقى بعض الستائر مسدلة، لا لأن خلفها
شيئاً مخيفاً...

بل لأنّ صاحب الغرفة لم يكن مستعداً بعد
لأن يرى كلّ شيء كما هو.
ثم تركت الستارة مفتوحة.
وللمرة الأولى، لم تبحث عن مكانٍ تختبئ فيه.
بحثت عن مكانٍ ترى منه بوضوح.

الفصل الرابع
الظِّلَالُ



الظل لا يكذب

كان يمشي تحت الشمس، وظله يسبقه أحيانًا ويتأخر عنه أحيانًا أخرى.

توقّف ذات مرة ونظر إليه طويلاً.

لم يكن يشبهه تمامًا، لكنه لم يكن غريبًا عنه.
فكّر في الأشياء التي يخفيها الإنسان عن الآخرين، ثم ابتسم.

ربما نحن لا نخاف أن يعرف الناس حقيقتنا بقدر ما نخاف أن يعرفوها كما نعرفها نحن.

نُخفي ارتباكنا خلف الشبات، ونضع الضحكة في المكان الذي يجب أن يكون فيه الكلام، ونقول «لا بأس» لأنّ بعض الحقائق تحتاج شجاعةً أكبر من الاعتراف.

لكنّ الظل لا يتقن المجاملة.

إنَّه يتبعك كما أنت، لا كما تريد أن
تبدو.

ولهذا لا يمكن للإنسان أن يهرب من
نفسه طويلاً.

قد يغيّر مكانه، ورفقته، وحتى اسمه في
بعض الحكايات، لكنّه سيجد ظله
ينتظره عند أول ضوء.

ولعلّ النضج ليس أن نتخلّص من
ظلالنا.

بل أن نتعلّم ألا نخجل منها.

في الجهة المعتمة

كانت الغرفة مضاءة من جهة واحدة.
ولهذا ظلّ نصفها الآخر غارقاً في العتمة.
لم تحاول إضاءة المصباح الثاني.
جلست هناك، تحدّق في الجزء الذي لا يصل إليه
الضوء.

وفكّرت أنّ الإنسان يشبه هذه الغرفة أكثر مما
يظن.

في داخله أماكن مضيئة يعرفها جيّداً، وأخرى
أغلق عليها الباب منذ زمن، لا لأنّها خالية، بل
لأنّها تحمل أشياء لم يتعلّم كيف ينظر إليها.

ذكرى لم تُفهم.

خطأ لم يُغفر.

كلمة بقيت في مكانها رغم مرور السنوات.

خوف لا يعرف صاحبه متى بدأ.

نحن نحب أن نظهر الجزء المضيء منا، وهذا طبيعي.

لكنّ الإنسان لا يصبح أكثر اكتمالاً حين يمحو عتمته؛

يصبح أكثر صدقاً حين يعرفها.

فما ندفنه لا يختفي دائماً.

قد يصمت فقط.

ثم يظهر يوماً في موقفٍ صغير، أو قرارٍ مفاجئ، أو خوفٍ

لا نجد له تفسيراً.

لذلك، ربما لا نحتاج إلى إضاءة كلّ شيء دفعةً واحدة.

يكفي أن نملك الشجاعة لنعرف أين يوجد الظلام.

ظلُّ أطول من صاحبه

كان الظلُّ طويلاً ذلك المساء.

نظر إليه، فضحك.

لم يكن أطول منه فحسب؛ بدا كأنّه يحمل كلّ السنوات التي

مرّت عليه.

خطواتٌ قديمة.

وجوهٌ غادرت.

أحلامٌ تغيّرت.

وأشياء كان يظنّ أنّه نسيها.

أدرك فجأة أنّ الماضي لا يبقى في الذاكرة بالطريقة نفسها التي

تبقى بها الصور.

أحياناً يتحوّل إلى ردّة فعل.

إلى حذر.

إلى عادة.

إلى جملةٍ نقولها لأنَّ أحدًا قالها لنا كثيرًا.

وقد نعتقد أننا تجاوزنا شيئًا، ثم يأتي
موقفٌ صغير فيكشف أنَّه لم يغادرنا
تمامًا؛ لقد غيّر مكانه فقط.

لكنَّ الماضي ليس سجنًا بالضرورة.
يمكن أن يكون معلمًا أيضًا، إذا
عرفنا كيف نقرأه دون أن نسكن فيه.
فالظلُّ الطويل لا يعني أنَّ الليل قادم.
أحيانًا يعني فقط أنَّ الشمس أصبحت
في مكانٍ آخر.

حين يختفي الظل

في الظهيرة، وقف تحت الشمس مباشرة.

اختفى ظلّه تقريبًا.

نظر إلى الأرض فلم يجد رفيقه القديم.

ابتسم.

ثم فهم شيئًا بسيطًا:

حتى الظلّ يحتاج إلى زاوية كي يظهر.

فليس كلّ ما يختفي قد انتهى.

بعض الأشياء تختفي لأنّ الظروف تغيّرت، أو لأنّ

الضوء جاء من جهةٍ مختلفة.

وهكذا قد تمرّ بنا أيامٌ لا نشعر فيها بثقلٍ كنا نحمله

طويلاً، فنظنّ أنّنا أصبحنا أشخاصًا آخرين.

ربما لم نتغيّر بالكامل.
ربما تغيّرت الزاوية التي ننظر منها إلى حياتنا.
وهذا وحده قد يكون كافيًا.
فليس مطلوبًا من الإنسان أن ينتصر على كلّ ما
يؤلمه، ولا أن يمحو كلّ ما ترك أثرًا فيه.
أحيانًا يكفي أن يصل إلى مكانٍ جديد، فيكتشف
أنّ الشيء الذي كان يلاحقه لم يعد يملك الشكل
نفسه.

وعندما تحرك قليلًا، ظهر ظلّه من جديد.
لم ينزعج هذه المرة.
نظر إليه، ثم واصل طريقه.
فقد عرف أنّ بعض الظلال ليست هناك لتمنع
الضوء...

بل لتذكّرنا أنّنا نقف تحته.

الفصل الخامس

المفاتيح



المفتاحُ الذي بقي في الجيب

احتفظ بالمفتاح سنواتٍ طويلة.

لم يكن يعرف لأيّ بابٍ يعود، فقد تغيّر البيت،
وتبدّلت الأقفال، وتكاثرت الأشياء التي لم يعد
يتذكّرها.

ومع ذلك، لم يرمِه.

كان يضعه في جيبٍ صغيرٍ من حقيبته، إلى جانب
أشياء لا يستعملها، كأنّ التخلّي عنه اعترافٌ بشيء
لم يكن مستعدّاً للاعتراف به.
في أحد الأيام، أخرج المفتاح ووضعه على الطاولة.
تأمّله قليلاً.

كان أصغر من أن يحمل كل ذلك المعنى.

ابتسم.

ثم فهم أنّ بعض الأشياء لا نبقىها لأننا
نحتاج إليها، بل لأننا لم نعرف كيف نودّع
ما كانت ترمز إليه.

ترك المفتاح مكانه، ومضى.

ولم يشعر أنّه فقد شيئًا.

فبعض الأبواب تُغلق منذ زمن، لكننا نظلّ
نحمل مفاتيحها، لا لأنّها ما زالت تفتح لنا
طريقًا، بل لأنّنا لم نتعلّم بعد أن الأبواب
القديمة لا تحتاج إلى مفاتيح جديدة.

الباب الذي فُتح من الداخل

ظلت تطرق الباب كل يوم.
مرة برفق، ومرة بإصرار، ثم تعود أدراجها حين لا
يأتيها جواب.

قالوا لها إنَّ الباب مغلق.

صدقتهم.

وفي صباح هادئ، وضعت يدها على المقبض.

فاستدار.

لم يكن مقفلاً.

وقفت لحظةً طويلة، وكأنَّها لا تعرف ماذا تفعل

بهذه الحقيقة.

كم من بابٍ في حياتنا نظنّه مغلقًا، لأنّنا انتظرنا
طويلاً أن يفتحه أحدٌ لنا؟
نبحث عن مفتاحٍ في أيدي الآخرين، وننسى أن
بعض الأبواب لا تحتاج إلا إلى يدٍ تتوقّف عن التردّد.
دخلت.

لم تجد خلف الباب عالماً جديداً.
وجدت غرفةً عادية، وطريقاً لم يكن بعيداً، وحياةً
كانت تنتظر منها أن تبدأ فقط.
وحين التفتت إلى الباب، أدركت أنّها أمضت وقتاً
طويلاً تسأل:

من سيفتح لي؟

بينما كان السؤال الذي لم تسأله قط:

متى سأفتح بنفسي؟

المفتاحُ الخطأ

وصل المفتاح أخيرًا.

كان متأكدًا أنه المفتاح الصحيح؛ شكله يشبهه،

وحجمه مطابق تقريبًا، وحتى الصوت الذي

أصدره حين وضعه في القفل منحه للحظةٍ

شعورًا بأنه على وشك الوصول.

أدار المفتاح.

لم يفتح الباب.

حاول مرةً أخرى.

ثم ثالثة.

بقي الباب ساكنًا.

توقف.

كان يستطيع أن يلوم القفل، أو الباب، أو الوقت، أو
حتى يلوم نفسه لأنه لم يحاول بما يكفي.
لكنه نظر إلى المفتاح.

وأدرك أنّ المشكلة لم تكن في مقدار محاولاته.
كان يحمل المفتاح الخطأ.

أحياناً نقضي سنواتٍ ونحن نكرّر المحاولة بالطريقة
نفسها، ثم نسمّي إصرارنا صبراً، بينما تحتاج الحياة
منّا شيئاً آخر تماماً.

ليس كلّ بابٍ مغلقٍ دعوةً إلى الطرق بقوة أكبر.
بعض الأبواب تخبرنا، بصمتها الطويل، أنّ علينا أن
نغيّر المفتاح.

وأنّ الاستمرار في المحاولة لا يصبح فضيلةً حين
يكون الاتجاه نفسه خاطئاً.

ما يفتحہ المفتاح

وجدت مفتاحًا صغيرًا بين أغراض أبيها القديمة.
سألت عنه، فلم يجبها أحد.
احتفظت به.

مرّت السنوات، وبقي المفتاح في درجها، حتى نسيت
أمره.

ثم جاء يومٌ احتاجت فيه إلى فتح صندوقٍ قديم.
جرّبت المفتاح.
استدار بسهولة.

فتحت الصندوق، فلم تجد شيئًا ثمينًا كما توقعت؛
بعض الأوراق، وصورةً باهتة، ورسالةً قصيرةً بخطّ
تعرفه جيدًا.

جلست طويلاً.

لم يكن المفتاح هو الشيء الذي فتح الصندوق.

كان قد فتح شيئاً آخر.

فتح زمناً كاملاً ظننت أنه انتهى، وفتح سؤالاً عن

الأشخاص الذين نتركهم خلفنا، ثم نكتشف بعد أعوام

أنهم ما زالوا يسكنون تفاصيلنا الصغيرة.

أغلقت الصندوق بهدوء.

وأعادت المفتاح إلى مكانه.

فهمت أخيراً أن بعض المفاتيح لا تُصنع للأبواب.

بعضها يفتح ذاكرةً، أو معنى، أو جزءاً منا ظل مغلقاً

لأننا لم نجد ما يكفي من الشجاعة لنقترب منه.

ولعل أئمن الأبواب التي تُفتح في حياتنا...

هي تلك التي تقودنا، للمرة الأولى، إلى أنفسنا.

الفصل السادس الحقائق



المفتاحُ الذي بقي في الجيب

احتفظ بالمفتاح سنواتٍ طويلة.

لم يكن يعرف لأيّ بابٍ يعود، فقد تغيّر البيت،
وتبدّلت الأقفال، وتكاثرت الأشياء التي لم يعد
يتذكّرها.

ومع ذلك، لم يرمِه.

كان يضعه في جيبٍ صغيرٍ من حقيبته، إلى جانب
أشياء لا يستعملها، كأنّ التخلّي عنه اعترافٌ بشيء
لم يكن مستعدّاً للاعتراف به.
في أحد الأيام، أخرج المفتاح ووضعه على الطاولة.
تأمّله قليلاً.

كان أصغر من أن يحمل كل ذلك المعنى.
ابتسم.

ثم فهم أنّ بعض الأشياء لا نبقىها لأننا
نحتاج إليها، بل لأننا لم نعرف كيف نودّع
ما كانت ترمز إليه.

ترك المفتاح مكانه، ومضى.
ولم يشعر أنّه فقد شيئًا.

فبعض الأبواب تُغلق منذ زمن، لكننا نظلّ
نحمل مفاتيحها، لا لأنّها ما زالت تفتح لنا
طريقًا، بل لأنّنا لم نتعلّم بعد أن الأبواب
القديمة لا تحتاج إلى مفاتيح جديدة.

الباب الذي فُتح من الداخل

ظلت تطرق الباب كل يوم.
مرة برفق، ومرة بإصرار، ثم تعود أدراجها حين لا
يأتيها جواب.

قالوا لها إنَّ الباب مغلق.

صدقتهم.

وفي صباح هادئ، وضعت يدها على المقبض.

فاستدار.

لم يكن مقفلاً.

وقفت لحظةً طويلة، وكأنَّها لا تعرف ماذا تفعل

بهذه الحقيقة.

كم من بابٍ في حياتنا نظنّه مغلقًا، لأنّنا انتظرنا
طويلاً أن يفتحه أحدٌ لنا؟
نبحث عن مفتاحٍ في أيدي الآخرين، وننسى أن
بعض الأبواب لا تحتاج إلا إلى يدٍ تتوقّف عن التردّد.
دخلت.

لم تجد خلف الباب عالماً جديداً.
وجدت غرفةً عادية، وطريقاً لم يكن بعيداً، وحياةً
كانت تنتظر منها أن تبدأ فقط.
وحين التفتت إلى الباب، أدركت أنّها أمضت وقتاً
طويلاً تسأل:

من سيفتح لي؟

بينما كان السؤال الذي لم تسأله قط:

متى سأفتح بنفسي؟

المفتاحُ الخطأ

وصل المفتاح أخيرًا.

كان متأكدًا أنه المفتاح الصحيح؛ شكله يشبهه،

وحجمه مطابق تقريبًا، وحتى الصوت الذي

أصدره حين وضعه في القفل منحه للحظةٍ

شعورًا بأنه على وشك الوصول.

أدار المفتاح.

لم يفتح الباب.

حاول مرةً أخرى.

ثم ثالثة.

بقي الباب ساكنًا.

توقف.

كان يستطيع أن يلوم القفل، أو الباب، أو الوقت، أو
حتى يلوم نفسه لأنه لم يحاول بما يكفي.

لكنه نظر إلى المفتاح.

وأدرك أنّ المشكلة لم تكن في مقدار محاولاته.

كان يحمل المفتاح الخطأ.

أحياناً نقضي سنواتٍ ونحن نكرّر المحاولة بالطريقة

نفسها، ثم نسمّي إصرارنا صبراً، بينما تحتاج الحياة

منّا شيئاً آخر تماماً.

ليس كلّ بابٍ مغلقٍ دعوةً إلى الطرق بقوة أكبر.

بعض الأبواب تخبرنا، بصمتها الطويل، أنّ علينا أن

نغيّر المفتاح.

وأنّ الاستمرار في المحاولة لا يصبح فضيلةً حين

يكون الاتجاه نفسه خاطئاً.

ما يفتحه المفتاح

وجدت مفتاحًا صغيرًا بين أغراض أبيها القديمة.
سألت عنه، فلم يجبها أحد.
احتفظت به.

مرّت السنوات، وبقي المفتاح في درجها، حتى نسيت
أمره.

ثم جاء يومٌ احتاجت فيه إلى فتح صندوقٍ قديم.
جرّبت المفتاح.
استدار بسهولة.

فتحت الصندوق، فلم تجد شيئًا ثمينًا كما توقعت؛
بعض الأوراق، وصورةً باهتة، ورسالةً قصيرةً بخطّ
تعرفه جيدًا.

جلست طويلاً.

لم يكن المفتاح هو الشيء الذي فتح الصندوق.

كان قد فتح شيئاً آخر.

فتح زمناً كاملاً ظننت أنه انتهى، وفتح سؤالاً عن

الأشخاص الذين نتركهم خلفنا، ثم نكتشف بعد أعوام

أنهم ما زالوا يسكنون تفاصيلنا الصغيرة.

أغلقت الصندوق بهدوء.

وأعادت المفتاح إلى مكانه.

فهمت أخيراً أن بعض المفاتيح لا تُصنع للأبواب.

بعضها يفتح ذاكرةً، أو معنى، أو جزءاً منا ظل مغلقاً

لأننا لم نجد ما يكفي من الشجاعة لنقترب منه.

ولعل أئمن الأبواب التي تُفتح في حياتنا...

هي تلك التي تقودنا، للمرة الأولى، إلى أنفسنا.

ما نحمله معنا

كانت الحقيبة أثقل من المعتاد.
أخرجت منها كتابًا، ثم دفترًا، ثم أشياء
صغيرة لا تعرف لماذا ما زالت تحتفظ
بها.

كانت تستطيع أن تترك نصفها بسهولة.
لكنّ يدها توقفت عند ورقةٍ قديمة.
لم تكن الورقة مهمة في نظر أحد،
ومع ذلك أعادتها إلى مكانها بعناية.

فبعض الأشياء لا يثقلها وزنها، بل المعنى الذي نحمله معها.
قد يمضي الإنسان من مدينةٍ إلى أخرى، ومن عمرٍ إلى عمر،
ويظنّ أنّه ترك كلّ شيء خلفه، ثم يكتشف أنّ بعض
الأماكن سافرت معه دون أن تحجز مقعدًا.
نحمل كلماتٍ قيلت لنا منذ سنوات.
نحمل نظرةً واحدة لم نفهمها وقتها.
نحمل أشخاصًا غادروا حياتنا، لكنهم تركوا فينا طريقةً
جديدة للنظر.
والأغرب أنّنا لا ننتبه إلى ثقل ما نحمله إلا حين نحاول أن
نضع الحقيبة أرضًا.
فتجلس للحظة، وتكتشف أنّ الرحلة لم تكن طويلةً
وحدها...

بل كان ما في داخلك يسافر معك أيضًا.

وصلت إلى المكان بحقيبة فارغة.

استغرب الجميع.

كيف يمكن لشخص أن يبدأ رحلة دون أن يحمل شيئاً؟
لم تشرح.

كانت تعرف أن بعض الرحلات لا تحتاج إلى أمتعة كثيرة؛
تحتاج فقط إلى مساحة لما سيأتي.

فالأشياء الجديدة لا تجد مكانها دائماً في حياة ممتلئة بكل
ما مضى.

نملاً أيامنا بالذكريات، وآراء الآخرين، والخوف من
تكرار الأخطاء، ثم نتساءل لماذا لا يتسع حاضرننا لشيء
جديد.

ربما ليست المشكلة دائماً في قلة الفرص.

ربما نحن الذين نصل إليها بحقيبةٍ ممتلئة.
ولهذا، قد يكون التخلي أحيانًا شكلًا من
أشكال الاستعداد.

أن تضع شيئًا جانبيًا لا يعني أنك أنكرته.
يعني فقط أنك أدركت أن الرحلة القادمة
تحتاج منك يدين فارغتين.
وعندما وصلت إلى وجهتها، لم تكن الحقيبة
أثقل.

لكنّها لم تعد فارغة.
كان فيها شيءٌ واحد:
مكانٌ لما لم تعرفه بعد.

الأشياء التي لا نُخرجها
كانت تعرف محتويات حقيبتها جيدًا.
كلّ شيء في مكانه، وكلّ جيب يحمل شيئًا
محددًا.

لكنّها لم تكن تفتح الجيب الصغير في
الداخل.

لم يكن مغلقًا بمفتاح.
ومع ذلك، لم تلمسه منذ زمن.
فيه أشياء لا تحتاجها، قالت لنفسها.
وهذا صحيح.

لكنّا لا نحفظ دائمًا بما نحتاجه.

أحيانًا نحتفظ بما لم نستطع التخلي عنه.
نضع الأشياء في أعماق مكان، لا لكي نحملها أمام
الآخرين، بل لكي نتجنب رؤيتها نحن.
ثم نمضي.

نضحك، نعمل، نخطط، ونبدأ أيامًا جديدة، بينما
يبقى ذلك الجيب الصغير مغلقًا.
إلى أن يأتي يومٌ تفتحه فيه الحياة بدلًا عنا.
قد تكون كلمةً عابرة، أو مكانًا قديمًا، أو وجهًا لم
نتوقع رؤيته.

وفجأة، يعود كل شيء.
ليس لأنّ الماضي عاد...

بل لأننا لم نضعه يومًا في مكانه الصحيح.

حين تصبح الحقيبة أخف

كانت تحمل حقيبتها في كل مكان.
ومع مرور السنوات، لم تضيف إليها أشياء كثيرة،
لكنها شعرت أنّها أصبحت أثقل.
فتحتها ذات مساء، وبدأت تخرج ما فيها.
وجدت رسالة لم تعد تنتظر جوابًا.
وصورةً لشخصٍ لم يعد يشبه المكان الذي وضعتَه
فيه.

وملاحظةً كتبتها لنفسها في عمرٍ أصغر.
قرأت الأخيرة طويلاً.

ثم طوتها.

لم تمزّق شيئًا.

لم تكن بحاجة إلى محو الماضي كي تتقدّم.
فقط أعادت لكلّ شيءٍ حجمه الحقيقي.
وضعت بعض الأشياء في صندوقٍ قديم، وتركت
بعضها حيث كانت، وأغلقت الحقيبة.
حين حملتها في الصباح، بدت أخف.
لم يتغيّر وزنها كثيرًا.
الذي تغيّر هو شيءٌ آخر.

لقد توقّفت عن حمل ما لا يجب أن تحمله.
وهذا أحد أشكال النضج التي لا يصفّق لها أحد:
أن تعرف ما يستحق أن يبقى معك،
وما يكفيه أن يكون ذكرى مرّت من هنا.

الفصل السابع
الرسائل



رسالة لم تُرسل

كتبت الرسالة كاملة.

ثم قرأتها مرةً أخرى.

لم يكن فيها شيءٌ زائد، ولا كلمةٌ ناقصة. كلُّ ما
أرادت قوله كان هناك، بين السطور، ينتظر طريقه
إلى الطرف الآخر.

وضعت الورقة في ظرفٍ أبيض، وكتبت الاسم.

ثم توقفت.

أعادتها إلى الدرج.

مرّت الأيام، ثم الشهور، وبقي الظرف في مكانه.

وحين عادت إليه بعد وقتٍ طويل، لم تعد تشعر

بالحاجة إلى إرساله.

لم تتغيّر الكلمات.

الذي تغيّر هو الشخص الذي كتبها.

وفهمت أنّ بعض الرسائل لا نكتبها لكي تصل إلى

أحد؛ نكتبها كي نصل نحن إلى حقيقةٍ ظللنا نؤجّل

الاعتراف بها.

قد تكون الكتابة أحيانًا طريقًا للخروج من شيءٍ

ظلّ عالقًا في الداخل.

ولهذا ليست كلّ رسالةٍ ناقصةٍ لأنها لم تصل.

بعض الرسائل أدّت مهمّتها كاملة...

حين جعلتنا نعرف ما كان يعجز الصمت عن إخبارنا

بين سطرين

وجدت في كتابٍ قديمٍ ورقةً صغيرة.

لم يكن عليها سوى سطرين.

الأول واضح.

والثاني ناقص.

قرأتهما مراتٍ كثيرة، ثم حاول أن يتخيل

ما كان سيُكتب بعد ذلك.

ربما كلمة.

ربما اعتذار.

ربما بداية شيءٍ لم يكتمل.
لكنه لم يعرف.
وبعد سنوات، فهم أنّه كان يبحث عن معنى في مكانٍ لا
يملك إجابة.
نحن نكره الفراغات.
نريد لكل قصةٍ نهاية، ولكل سؤالٍ جوابًا، ولكل صمتٍ
تفسيرًا.
لكنّ الحياة لا تمنحنا ذلك دائمًا.
هناك أشياء تنتهي قبل أن تقول كل ما لديها، وأشخاص
يرحلون تاركين خلفهم جملةً لا نعرف كيف نكملها.
ومع ذلك، نمضي.
لأنّ النقص ليس دائمًا علامةً على أنّ الحكاية فشلت.
أحيانًا يكون الجزء الذي لم يُكتب هو الذي يترك لنا
مساحةً لنكتب حياتنا بعده.

العنوان القديم

كان يحتفظ بعنوانٍ قديم في دفتره.
كلّما فتحه، مرّ إصبعه فوق الكلمات دون أن
يتوقف عندها.

لم يعد أحد يسكن ذلك العنوان.
تغيّرت المدينة، وربما تغيّر صاحب البيت،
وتغيّر هو أيضًا.

ومع ذلك، بقي العنوان كما هو.
غريبٌ كيف يمكن لمجموعة أرقامٍ واسم
شارع أن تحمل زمنًا كاملاً.

فالأماكن لا تحفظ الجدران فقط.

تحفظ النسخ التي كنّا عليها حين عشنا فيها.

ولهذا، حين نعود إلى مكانٍ قديم، لا نبحث عن المكان وحده.

نبحث عن أنفسنا التي تركناها هناك.

قد نجد الباب نفسه، لكنّ اليد التي كانت تطرقه لم تعد
كما كانت.

وقد نجد الشارع نفسه، لكنّ الخطوات التي عبرته ذات يوم
لم تعد تعرف طريق العودة.

أغلق الدفتر.

لم يمزّق العنوان.

فبعض عناوين لا نحتاج إلى العودة إليها.

يكفي أن نعرف أنّنا مررنا بها يومًا، وأنّها، بطريقةٍ لا تُرى،

كانت جزءًا من الطريق الذي أوصلنا إلى هنا.

ما تركناه في الآخرين

لم يكن يعرف ماذا ترك وراءه.
حين غادر المكان، أخذ حقيبته، وأغلق الباب، ومضى.
ظنّ أنّ الأشياء تنتهي حين يغادرها.
ثم بعد سنوات، سمع شخصًا يكرر جملةً كان يقولها
دائمًا.
توقف.

لم يكن يعرف أنّ كلماته بقيت في أحدهم.
وفي مكانٍ آخر، كانت طريقةً علّمها لشخصٍ ما لا تزال
تُمارَس.

وفي ذاكرةٍ بعيدة، كان أحدهم يتذكّر موقفًا صغيرًا
جمعهما، بينما كان هو قد نسيه تمامًا.

عندها أدرك شيئًا:

نحن لا نغادر الأماكن وحدنا.

نترك فيها شيئًا منّا، ولو لم نقصد.

كلمة، أو موقفًا، أو أثرًا صغيرًا لا نعرف قيمته لحظة حدوثه.

ولهذا قد لا نعرف أبدًا ماذا فعل وجودنا في حياة الآخرين.

قد نظن أننا مررنا مرورًا عابرًا، بينما كان أحدهم يحتاج، دون أن نعرف، إلى كلمة قلناها في يومٍ عادي. وربما لهذا...

ليس المهم دائمًا أن يتذكر الناس أسماءنا.

يكفي أحيانًا أن يبقى منهم شخص واحد، بعد

سنوات، يحمل في داخله شيئًا جميلًا مرَّ به من خلالنا.

الفصل الثَّامِن

النُّور



رسالة لم تُرسل

كتبت الرسالة كاملة.
ثم قرأتها مرةً أخرى.
لم يكن فيها شيءٌ زائد، ولا كلمةٌ ناقصة. كلُّ ما
أرادت قوله كان هناك، بين السطور، ينتظر طريقه
إلى الطرف الآخر.
وضعت الورقة في ظرفٍ أبيض، وكتبت الاسم.
ثم توقفت.
أعادتها إلى الدرج.
مرّت الأيام، ثم الشهور، وبقي الظرف في مكانه.

وحين عادت إليه بعد وقتٍ طويل، لم تعد تشعر

بالحاجة إلى إرساله.

لم تتغيّر الكلمات.

الذي تغيّر هو الشخص الذي كتبها.

وفهمت أنّ بعض الرسائل لا نكتبها لكي تصل إلى

أحد؛ نكتبها كي نصل نحن إلى حقيقةٍ ظللنا نؤجّل

الاعتراف بها.

قد تكون الكتابة أحيانًا طريقًا للخروج من شيءٍ

ظلّ عالقًا في الداخل.

ولهذا ليست كلّ رسالةٍ ناقصةٍ لأنها لم تصل.

بعض الرسائل أدّت مهمّتها كاملة...

حين جعلتنا نعرف ما كان يعجز الصمت عن إخبارنا

بين سطرين

وجدت في كتابٍ قديمٍ ورقةً صغيرة.

لم يكن عليها سوى سطرين.

الأول واضح.

والثاني ناقص.

قرأتهما مراتٍ كثيرة، ثم حاول أن يتخيل

ما كان سيُكتب بعد ذلك.

ربما كلمة.

ربما اعتذار.

ربما بداية شيءٍ لم يكتمل.
لكنه لم يعرف.
وبعد سنوات، فهم أنّه كان يبحث عن معنى في مكانٍ لا
يملك إجابة.
نحن نكره الفراغات.
نريد لكل قصةٍ نهاية، ولكل سؤالٍ جوابًا، ولكل صمتٍ
تفسيرًا.
لكنّ الحياة لا تمنحنا ذلك دائمًا.
هناك أشياء تنتهي قبل أن تقول كل ما لديها، وأشخاص
يرحلون تاركين خلفهم جملةً لا نعرف كيف نكملها.
ومع ذلك، نمضي.
لأنّ النقص ليس دائمًا علامةً على أنّ الحكاية فشلت.
أحيانًا يكون الجزء الذي لم يُكتب هو الذي يترك لنا
مساحةً لنكتب حياتنا بعده.

العنوان القديم

كان يحتفظ بعنوانٍ قديم في دفتره.
كلّما فتحه، مرّ إصبعه فوق الكلمات دون أن
يتوقف عندها.

لم يعد أحد يسكن ذلك العنوان.
تغيّرت المدينة، وربما تغيّر صاحب البيت،
وتغيّر هو أيضًا.

ومع ذلك، بقي العنوان كما هو.
غريبٌ كيف يمكن لمجموعة أرقامٍ واسم
شارع أن تحمل زمنًا كاملاً.

فالأماكن لا تحفظ الجدران فقط.

تحفظ النسخ التي كنّا عليها حين عشنا فيها.

ولهذا، حين نعود إلى مكانٍ قديم، لا نبحث عن المكان وحده.

نبحث عن أنفسنا التي تركناها هناك.

قد نجد الباب نفسه، لكنّ اليد التي كانت تطرقه لم تعد
كما كانت.

وقد نجد الشارع نفسه، لكنّ الخطوات التي عبرته ذات يوم
لم تعد تعرف طريق العودة.

أغلق الدفتر.

لم يمزّق العنوان.

فبعض عناوين لا نحتاج إلى العودة إليها.

يكفي أن نعرف أنّنا مررنا بها يومًا، وأنّها، بطريقةٍ لا تُرى،

كانت جزءًا من الطريق الذي أوصلنا إلى هنا.

ما تركناه في الآخرين

لم يكن يعرف ماذا ترك وراءه.
حين غادر المكان، أخذ حقيبته، وأغلق الباب، ومضى.
ظنّ أنّ الأشياء تنتهي حين يغادرها.
ثم بعد سنوات، سمع شخصًا يكرر جملةً كان يقولها
دائمًا.
توقف.

لم يكن يعرف أنّ كلماته بقيت في أحدهم.
وفي مكانٍ آخر، كانت طريقةً علّمها لشخصٍ ما لا تزال
تُمارَس.

وفي ذاكرةٍ بعيدة، كان أحدهم يتذكّر موقفًا صغيرًا
جمعهما، بينما كان هو قد نسيه تمامًا.

عندها أدرك شيئًا:

نحن لا نغادر الأماكن وحدنا.

نترك فيها شيئًا منّا، ولو لم نقصد.

كلمة، أو موقفًا، أو أثرًا صغيرًا لا نعرف قيمته لحظة حدوثه.

ولهذا قد لا نعرف أبدًا ماذا فعل وجودنا في حياة الآخرين.

قد نظن أننا مررنا مرورًا عابرًا، بينما كان أحدهم يحتاج، دون أن نعرف، إلى كلمة قلناها في يومٍ عادي. وربما لهذا...

ليس المهم دائمًا أن يتذكر الناس أسماءنا.

يكفي أحيانًا أن يبقى منهم شخص واحد، بعد

سنوات، يحمل في داخله شيئًا جميلًا مرَّ به من خلالنا.

حين يتغيّر الضوء

لم يتغيّر المكان.

الطاولة في موضعها، والنافذة مفتوحة، والكتب التي

تركتها بالأمس ما زالت حيث وضعتها.

ومع ذلك، بدا كل شيء مختلفًا.

كان الضوء قد دخل من جهةٍ أخرى.

وقفت تتأمل الغرفة، ثم أدركت كم من الأشياء نراها

بالطريقة نفسها فقط لأنّ الضوء لم يتغيّر.

وربما نحن كذلك.

قد نبقى في المكان نفسه، ونعيش الأيام نفسها، ونحمل

الأسئلة ذاتها، ثم تأتي لحظة صغيرة تغيّر الزاوية التي

ننظر منها.

لا يحدث شيء في الخارج.
لكنّ الداخل لا يعود كما كان.
وهنا لا نحتاج دائماً إلى حياةٍ جديدة.
أحياناً نحتاج إلى عينٍ جديدة ترى الحياة القديمة بمعنى
مختلف.

فالشيء نفسه قد يبدو لنا يوماً خسارة، ثم نكتشف بعد
أعوام أنّه كان يفتح طريقاً لم نكن نراه.
وقد نظنّ أن باباً أُغلق في وجوهنا، بينما كان الضوء الذي
خلفه يقودنا إلى جهةٍ أخرى.
لهذا، لا تتعجّل الحكم على الأشياء وهي في منتصف
الحكاية.

فبعض المعاني لا تظهر حين تحدث...
بل حين يتغيّر الضوء الذي ننظر إليها تحته.

ما بقي

أفرغت الغرفة استعدادًا للرحيل.
أخذت الكتب، والصور، والأشياء التي جمعتها خلال
سنوات.
بقيت الغرفة شبه فارغة.
وقفت في منتصفها، وشعرت أنّ شيئًا ما لا يزال هناك.
لم تعرف ما هو.
لم تكن صورة، ولا قطعة أثاث، ولا شيئًا يمكن وضعه
في صندوق.
كان المكان يحمل أثر الأيام التي مرّت فيه؛ ضحكاتٍ لم
تعد تُسمع، خطواتٍ اعتادت الأرض أن تعرفها، وأحلامًا
بدأت هنا ثم أخذتها الحياة إلى أماكن أخرى.

خرجت وأغلقت الباب.

وفي الطريق، فهمت أننا لا نأخذ كل شيء حين
نرحل.

هناك أشياء تبقى في الأماكن.

وأشياء أخرى تبقى فينا.

وربما لهذا لا تكون النهاية محوًا لما سبقها.

ما عشناه لا يختفي لأننا تجاوزناه.

إنه يتغير فقط؛ يتحول من حياة نعيشها إلى أثر
نحمله.

والأثر لا يطلب منا أن نعود.

يكفيه أن يذكرنا، من بعيد، بأننا كنا هنا ذات

يوم...

وأننا لم نخرج من الحكاية كما دخلناها.

الجهة التي لم ننتبه إليها

كان يبحث عن الطريق منذ زمن.

جرب أبوابًا كثيرة، ووقف أمام نوافذ كثيرة، وحمل معه أشياء

ظنَّ أنها ستقوده إلى المكان الصحيح.

وفي النهاية، جلس متعبًا.

رفع رأسه.

كانت هناك لافتة فوقه.

قرأها.

ثم ضحك.

لقد مرّ من هنا عشرات المرات.

لم تكن اللافتة جديدة.

هو الذي لم يكن ينظر إليها.

أحيانًا لا تكون المشكلة أن الطريق مخفي.

نحن فقط نبحث عنه في الاتجاه الذي اعتدنا أن ننظر
إليه.

نفتش عن الإجابة في الآخرين، بينما السؤال يسكن
فينا.

ننتظر إشارة من الخارج، بينما الخطوة الأولى تنتظر قرارًا
في الداخل.

نحسب الوصول مكانًا، ثم نكتشف أنه كان طريقةً
جديدة لفهم أنفسنا.

ولهذا، قد لا تحتاج حياتنا دائمًا إلى طريق جديد.

ربما تحتاج إلى أن نلتفت.

إلى أن نرفع رؤوسنا قليلًا.

إلى أن نرى ما كان موجودًا طوال الوقت، لكننا كنّا

مشغولين بالبحث عنه في الجهة الخطأ.

الأثر

في آخر النهار، عاد إلى المكان الذي بدأ منه كل شيء.
لم يجد شيئاً ينتظره.
لا باباً مفتوحاً، ولا رسالةً، ولا شخصاً يقف في الجهة الأخرى.
فقط ضوءٌ هادئٌ يمتدّ على الأرض.
وقف قليلاً.
ثم نظر إلى يديه.
لم تحمل شيئاً.
ومع ذلك، شعر أنه يحمل أكثر مما حمل يوماً.
حمل الطريق الذي قطعه.
والأبواب التي فتحها ولم يفتحها.
والأشياء التي وضعها خلفه.
والكلمات التي قالها، وتلك التي تركها للصمت.
حمل النسخ القديمة منه، دون أن يعود إليها.
وحمل ما تعلّمه دون أن يحوّلَه إلى يقينٍ مغلق.

عندها فهم أنّ الإنسان لا يخرج من الحياة بما جمعه منها،
بل بما تركته فيه.
فالأشياء ترحل.
الأماكن تتبدّل.
الوجوه تعبر.

والسنوات تطوي بعضها بعضًا.
لكنّ هناك شيئًا لا يحتاج إلى مكانٍ كي يبقى.
أثرًا لا تراه العين، ولا تستطيع اليد أن تمسكه، ومع ذلك
يغيّر الطريقة التي نمشي بها، وننظر بها، ونفهم بها ما
يحدث حولنا.
ابتسم، ومضى.

لم يعد يبحث عن المعنى خلف كلّ شيء.
صار يعرف أنّ المعنى ليس دائمًا شيئًا نعثر عليه.
أحيانًا...

نحن الأثر الذي تركه المعنى فينا.

وهكذا انتهت الحكاية.

أو ربّما لم تنته.

فمنذ هذه اللحظة، قد تنظر إلى مرآة عابرة، أو طريقٍ

لم تسلكه، أو نافذةٍ مضيئة، أو ظلّ يرافق خطواتك،

أو مفتاحٍ منسيّ، أو حقيبةٍ أثقلتها السنوات، أو

رسالةٍ لم تصل...

وتتساءل:

كم من الأشياء مرّت أمامنا،

ولم نعرف يوماً ما الذي تركته فينا؟

ثم تمضي.

لكنّك هذه المرّة...

لن ترى الأشياء بالطريقة نفسها.

الخاتمة

ربّما لا تتغيّر الحياة حين نكتشف معنى
الأشياء،
لكنّنا نحن نتغيّر.

نعود إلى الأماكن نفسها، ونرى الوجوه نفسها،
ونسير في الطرق التي اعتدناها، لكنّ شيئاً في
داخلنا يصبح أكثر انتباهاً. نبدأ برؤية ما كان
يمرّ من أمامنا دون أن نتوقّف عنده؛ تفصيلاً
صغيراً، كلمةً عابرة، صمتاً طويلاً، أو أثراً لم

نعرف لحظة حدوثه أنّه سيبقى.

ولعلّ هذا هو كلّ ما حاولت هذه الصفحات أن
تقوله:

أنّ الحياة لا تُخبّئ معناها دائماً في الأشياء الكبيرة.

أحياناً تختبئ الحكاية في نظرة،

والبداية في خطوة،

والنهاية في مفتاح لم نعد نحتاج إليه،

والذاكرة في ورقة،

والنجاة في أن نترك شيئاً خلفنا،

والطريق في أن نلتفت إلى الجهة التي لم ننتبه

إليها.

نحن نعبر كثيرًا، ونظنّ أنّ ما نعبره يمضي معنا
إلى النهاية. لكنّ بعض الأشياء لا تمضي؛
تتحوّل فقط. تصبح جزءًا من طريقتنا في النظر،
وفي الاختيار، وفي فهم أنفسنا والآخرين.

ولهذا، ليس كلّ ما لا نراه غائبًا.

هناك أشياء لا تظهر للعين، لكنها تغيّرنا.
وأشياء لا نسمعها، لكنها تبقى فينا.
وأشياء نظنّ أنّها انتهت، ثم نكتشف أنّها كانت
تهيئنا لشيءٍ لم نكن نعرف أنّنا سنصبحه.

فلا تستعجل تفسير كل ما يحدث لك.

بعض المعاني تحتاج وقتًا كي تظهر، وبعض الآثار لا نعرف قيمتها إلا بعد أن نبتعد قليلًا عن اللحظة التي تركتها.

وإذا أغلقت هذا الكتاب الآن، فلا أريدك أن تحمل منه إجابة جاهزة.

خذ فقط تلك النظرة الجديدة.

انظر إلى ما حولك قليلًا أكثر.

إلى الأشياء التي اعتدت وجودها حتى لم تعد تراها، وإلى التفاصيل التي مرّت بك سريعًا، وإلى ما تركته الأيام فيك دون أن تستأذنيك.

فربّما كان أجمل ما في الحياة أنّها لا تكشف لنا
كلّ شيء دفعةً واحدة.

تترك لنا دائماً شيئاً نكتشفه لاحقاً.

شيئاً لا يُرى...

لكنّه يبقى.

أثرٌ ما لا يُرى.

النهاية....

ليست كلّ الأشياء التي مرّت بنا قد مضت.
بعضها اختبأ فينا، وغير شيئاً لن نعرف
وربّما كان ما لا نراه...
هو أكثر ما ترك فينا أثراً.



— تصميم فاطمة فتوح —